مصرع يونـفا ـ فو

للكاتب الروسي: روفيم فريرمان

«Ruvim Isaievich Fraerman»

أمضى «يونـفا ـ فو» أربعين سنة من عمره بجانب النهر ورغم أن ذلك النهر لم يكن واسعاً متراميـ الضفاف إلا أن خرير جريانه كان عالياً يمر بجوار منزل «يونـفا ـ فو» عازفاً سمفونيته المألوفة العذبة تصافح أسماعه فيشعر بأن الدنيا ـ برمتها ـ قد دانت له وغدت ملك يمينه.... ليل نهار كانت مياهه تنساب من أعالي الجبال لتصب في أعماق الوادي المسمى «الأرض الصفراء» حتى المياه إما سرت فيه اكتست ذات اللون الأصفر على أنها كانت كسائر مياه العالم تشع تبراً كلما سقطت فيها صبابات الشمس حتى إذا ما سجى الليل... اتشحت بالسواد.

وكان «يونـفا ـ فو» رجلاً بسيطاً... ذا وجه قاس ويدين خشنتين على أنه كان بإمكانه إنجاز الكثير بهما.. تشكيل آنية من النحاس لا تقل روعة عن تلك التي تباع في سوق المدينة.. وعملُ مشط أنيق من ذلك اليشب الذي عثر في الجبل عليه إلا أن سعادته كانت تتبلور في أسمى معانيها حين ينهمك في زراعة القمح و الأرز وإذا ما شح الحيّز المكاني لذلك حول ضفة النهر أوجد ـبذكائهـ مساحة ملائمة يساويها بطمي يحمله في سلة معه... وكان منزله مبنّيا من الطمي ذاته على أن ذلك كان نقطة تضاف إلى إيجابياته فمسكنه بارد صيفاً... دافئ أوان الشتاء، وكانت تزين مدخله أعمدة حفرها من جذوع الأشجار فيما دأب على رشّ جدرانه الداخلية بماء النهر وغطّاها بطبقة رقيقة... صقيلة.

ولم يكدر صفو سعادته غير غزو بلدته من قبل الدولة المجاورة المعادية. كان المحتل فظاً غليظ القلب... طاغيةً لا يرحم صغيراً أو كبيراً.. أحرق القرى وشرَّد الأهالي.. وقتل المحتلون أباه وولديه فامتلأ قلبه كراهية وحقداً وانضم إلى

المقاتلين في ذرى الجبال حاملاً معه بندقيته التي رغم أنها لم تكن أحسن حالاً من تلك التي صنعها الإنسان لأول مرة على وجه المعمورة إلا أنه سرعان ما أصبح مصدر رعب للعدو.

ـ اسمع «يونـفا ـ فو» قال له رئيس جماعة المناضلين ـ غط عملياتك الهجومية وأخفِ نفسك واتجه إلى الضفة الأخرى من النهر حيث يكمن العدو فأنت تعرف المنطقة جيداً أما فيما يختص ببندقيتك فاتركها ـ راهناً ـ معنا!

وهكذا أصبح «يونـفا ـ فو» كشّافاً يخفي آثار خطواته، ويغطي جسده بالأغصان، إما سار وتوقف حتى عن الالتقاء بأصدقائه على أن خير عِوض عن ذلك كله أن اسمه شع في الآفاق كمصدر رعب هزّ كيان العدو الذي طغت كراهيته له والرغبة في انتقامهم منه على ما سواها... أمسى شغلهم الشاغل بعد إذ أوقع بهم أفدح الخسائر.. ما مر يوم ما تكبد فيه العدو خسارة أو مُني ـ على يديه ـ بكارثة... قضبان تخرج القطارات المحملة بجنود الغازي عن مسارها... وتحركات يعلم المناضلون بها حتى كأنهم معهم أنى حلّوا أو ارتحلوا واضطر الغازي إلى التخلي عن بعض المناطق حمايةً لخطوط مواصلاته.... ضحّى ـ في سبيل الحفاظ على إحدى الضفتين ـ بالضفة الأخرى ولكن «يونـفاـ فو» لم يدع له فرصة للراحة هناك أيضاً وهذا ما حدا بالغازي إلى الإعلان عن جائزة لمن يقتل «يونـفا ـ فو» على أن زمناً طويلاً مر دون أن يتقدم أحد لذلك، لكن جنود الاحتلال قدموا يوماً على زعيمهم الجنرال ـ تاسيمارا ـ بشخص مهم... لم يكن «يونـفا ـ فو» بطبيعة الحال بل جاره الطحان الكوري الثري «تسوي نام جاي» ـ ارحم ذلي وبؤسي وفقري سيدي ـ قال للجنرال بمكر غلّفته المسكنة وهو ينحني له ـ لقد تجّرأ «يونـفاـفو» فقطع العام المنصرم إحدى شجيرات التوت من مزرعتي ولقد سمعت بأنه يزمع الليلة عبور النهر سباحةً قرب أعواد القصب هذه... ولا أعلم شيئاً عن «يونـفا ـ فو» غيرذلك، على أني آمل. بتقديمي تلك المعلومة أن أحظى بالجائزة المخصصة لذلك.

obeikandl.com

ـ أهذا كل ما لديك بخصوص المدعو «يونـفا ـ فو»؟ سأل الجنرال.

ـ هذا في حقيقة الأمر هو كل ما لدي!

ـ فأنت ـ في هذه الحالة لم تقدم ما يؤهلك للحصول على الجائزة ـ إذ إنه قد عبر النهر سباحةً العديد من المرات ولم نستطع اكتشاف ذلك لأنه يسبح دون شك كسمك الجرِّيس ـ لا يهم سوف أمنحك الجائزة إن أخبرتني عن الأشياء التي يفضل «يون فا فو» القيام بها حينما يكون في منزله.

ـ بإمكاني الإجابة على هذا السؤال ـ سارع الطحان بالرد: في الصباح الباكر حينما يكون ظل طاحونتي مستقراً على صفحة الماء يكون «يون فـا ـفو» منهمكاً غالباً في تسوية تربة حقله بمعول.... وهو يهوى إلى جانب ذلك تلقي أمطار الصباح والمساء تنساب فوق رأسه فتسّاقط على كتفيه ووجهه... ويهوى أيضاً حمل الأطفال على منكبية بحب وحنان ولطالما حمل ابني رغم معارضتي الشديدة لذلك!

ـ أرأيت ـ أنت إذاً تعرف الكثير عنه خلافاً لنفيك ذلك! قال الجنرال بابتسامة صفراء واهنة ـ اذهب إلى الجنود واطلب منهم إحضار طفلك إلى هنا.

ـ وماذا تريدون من ابني؟ قال الطحان بهلع إذ إن تلك الابتسامة الصفراء أمر غريب... رهيب مريب لا يمكن التكهن بما تخفيه! على أن الجنرال ما منحه إجابة أبداً ولأن أنيابه كانت بارزة ومعقوفة كأنياب ابن عرس منتن، فقد تراجع الطحان في هلع منحنياً أمامه في خضوع المشفقين.

بجانب أعواد القصب كان «يونـفا ـ فو» يجلس مختبئاً عن أعين العدو والماء يحيط به من كل صوب ـ كان الماء الدافئ يحتضن صدره وبقية جسده فيما روّح النسيم البليل على وجهه فأنعشه إذ إن المساء كان يؤذن بحلول... كان ساكناً في مكمنه السكون كله حتى أن الطيور الصغيرة كانت تحط على الأغصان القريبة غير شاعرة بوجوده.. ومر الوقت وهو في موضعه لما يزل... يرفع رأسه فيما ندر

كيما يلقي على العدو ـ في الضفة الأخرى ـ نظرةً متأنية ـ وقتها ما كان هناك ثمة جندي بربطة ساق بيضاء في الأفق وأسعده ذلك كان ينَتظِر فقط أن يستقر الضباب على صفحة الماء وتطير غربان العقعق إلى أوكارها أعلى الجبل كيما يخترق كبد الليل فيعبر النهر سباحةً في هدوء... وبقي على سكونه محدقاً في غرنوق طويلٍ حطّ بين أعواد القصب... واغرورقت عيناه بالدموع حين تذكر فجأة وهو الإنسان الرقيق البسيط الدلالة التي يحملها هذا الطائر... وتذكر مقتل أبيه العجوز على يد العدو.... على إنه انتهى إلى الحقيقة التي مؤداها وجوب البكاء على الموتى ومحبة الأحياء كما يراها.

وصافح مسمعه صوت غريب واهن بدا كما لو كان حفيف مجداف أو همس امرأة ما استطاع أن يدرك كنه الصوت وفرق بيديه الطحالب الطافية على سطح النهر كستارة ومد نظرة بعيداً.

ثمة قارب كان يطفو فوق الأمواج وسط النهر... وكان يتأرجح على سطحه كورقة صفصاف في مهب الريح فيما كانت امرأة تحاول حفظ توازنها على القارب دون جدوى وبيدها مجداف تستعين به وقد احتضنت طفلها باليد الأخرى!

ـ المسكينة... ستغرق لا محالة ـ قال ـ يون فا ـ فو ـ ثم نظر حوله عسى أن يكون أحد في طريقه لإنقاذها على أن النهر كان برمته خلو مما سواهما. وبدأت المياه تغمر القارب من كل صوب فيما تشبثت المرأة بطفلها أكثر فأكثر كأنما لتخفيه ـ بسذاجة ـ عن مخالب الموت والصغير يتململ في أحضانها.

ـ أليس ذلك صوت طفل الطحان «تسوي نامجاي»؟ تساءل «يون فا فو» وفجأة مال القارب فسقطت المرأة. وطفلها في النهر!. ولم يجد «يون فا فو» مناصاً من المسارعة إلى أداء الواجب الذي حتمته طيبة قلبه ونبل أخلاقه. شق عباب الماء بكتفيه وقدميه وأوصلته اختراقاتٌ عشر من ذراعيه القويتين إلى حيث يقبع القارب المقلوب المنكوب وعمد إلى الطفل فحمله على كفه الأيمن حتى رفعه عن مستوى الماء ثم صاح بالمرأة طالباً منها أن تتشبث به!.

ـ وسبحت نحوه وهي لا تزال ممسكة بطرف القارب لما تزل وفي تلك اللحظة تماماً استشعر «يونـفا ـ فو» ضربة قاصمة من سيف قصير وعلت صرخات الطفل الذي سقط في الماء حتى عمت أرجاء النهر الأصفر قابلتها صرخة مماثلة أخرى من الضفة الثانية.. كانت صرخة «تسويـنامـجاي» الذي شهد مصرع ابنه. وفيما كانت الدماء تنزف من «يونـفا ـ فو» بغزارة فاقداً الوعي شيئاً فشيئاً والماء يحاصر ذرات رئتيه كان فكره يحلل ما حدث:

ـ «تلك لم تكن امرأةً أبداً... لقد اصطادوني! وقعت في الفخ كعصفور!» وبعد فترة قصيرة جيء به إلى الجنرال جريحاً ينزف.

ـ أهذا هو؟ قال الجنرال «تاسيمارا» مخاطباً الطحان «تسوي نامـجاي».

ـ نعم إنه هو! رد الطحان وعبراته على موت ابنه لا تزال تجلد صدره.

ـ تستحق الجائزة الآن ـ قال الجنرال وعلى شفتيه تراقصت ذات الابتسامة الواهنة الصفراء!.

وقبل أن ـ تؤوب غربان الجبل إلى أوكارها كان «يون فا ـ فو» قد أُعدم أمام جدار منزله فيما كان الجنرال يقول مخاطباً جنده:

ـ اليوم يومنا لا يوم آبائنا ـ لقد اصطدته لأني ارتأيت أن علينا معرفة القيم والأبعاد الكامنة خلف كل شيء في هذا الوجود... ذلك فقط كان دافعي!

وسقط «يون فا ـ فو» ـ وقد حُزّت عنقه ـ على الطمي الأصفر لأرضه.... ذاتُ الطمي الذي شيد به بيته والذي كان كثيراً ما يريح عليه كفيه ورغيفه، وكان وجهه صوب السماء فيما عانقت يداه التراب بعد إذ اعتادتا احتضان المعول.. كان مشهداً أخّاذاً يذيب الحجر ويلهم العبر.

في صبيحة اليوم التالي قذف الجنود بجثة «يون فا ـ فو» في النهر فحملتها رياح هادئة انحدرت من جبل «اين شانيو» صوب التيار دون أن تثير أمواجاً.

opeikandi.com

وشاع خبر موته حتى سبق الريح فجاء الفلاحون من كل حدب وصوب لاعتراض الجثة التي حملوها عالياً واتجهوا بها صوب الجبل يتبعهم مزيد من المتطوعين للانخراط في صفوف المناضلين، وهناك في أعلى الجبل وفي ركن هادئ.. بين الجداول والخمائل وعبق أشجار الدراق والكرز دفنوا «يون فا ـ فو» وعلى جدار ضريحه دوّنوا بحبر الهند أروع عبارات الرجولة والتضحية... والبطولة.

obeikandl.com